
راضي جودة
قال الحصان
حكايات من ذاكرة الفروسية

قال الحصان

حكايات من ذاكرة الفروسية

صدر للمؤلف
كشكول الكشكول ـ صفحات من حياة الدكتور حسن ظاظا .
الفاصلة والحرف
التشكيل والتجريب ـ رؤية فنية لأعمال تشكيلية عصرية
يا أي شيء
السيد عاشور ـ تاجر الأقمشة بالحمزاوي
فاصلة تتعثر
له تحت الطبع
لمحات من مشاهد التشكيل العربي
يصدر قريباً
بخلاء ولا جاحظ لهم .
رجل ثار الجدل .
رحلة إلى إنسان .
المؤلف
راضي محمد السيد جودة
عضو نقابة المهن الزراعية ، عضو مؤسس مجموعة التشكيليين العرب
عضو نقابة الفنانين التشكيليين بالقاهرة ، عضو وبيت التشكيليين
بجدة
عضو نادي الرياض الأدبي
عضو جماعة الفنانين والكتاب ـ الأتيلييه بالاسكندرية
مواليد ١٩٥٠ م بمدينة الاسكندرية

الإهداء

◇◇

إلى مدرسة الزراعة بالرأس السوداء التي منحتني فرصة للإقتراب من الخيول والتعرف عليها وعلى خصائصها .

إلى العم ممدوح قرانوح اللبناني طيب القلب الذي ترك في عهدتي عدة رؤوس من خيول السباق حيث ضمها اسطبل ابراهيم شحاتة بنادي سموحة .

إلى مجلة الفروسية التي اخرجتها فنيا لعدد من السنوات وقد اعطتني مجالا كبيرا للثقافة والإطلاع وكتابة مقالات بشكل اسبوعي في قسم عنونته بـــ (مكتبة الفروسية) .

إلى الحصان الذي جعلني استمع لقوله وبطولاته

أهدي

راضي جودة

قال الحصان :

أنا أحمل صاحبي على كاهلي ، فأجتهد به في السير ، وأنطلق به كالطير ، أهجم هجوم الليل واقتحم اقتحام السيل فإن كان طالباً أدرك بي طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أسباب الردى عنه محتجبة ، فلا يدرك مني إلا الغبار ، ولا يسمع عني إلا الأخبار ، وإن كان الجمل هو الصابر المجرب ، فأنا السابق المقرب ، وإن كان هو المقتصد اللاحق ، فأنا المقرب السابق .

فإذا كان يوم اللقاء قدمت إقدام الواله ، وسبقت سبق نباله وذلك مختلف لثقل أحماله ، وإن أوثق سائس قيدي وأمن قائدي كيدي وأوثقت بشكالي لكيلا أحول على أشكالي وألجمت بلجامي كيلا أغفل عن قيامي وأنعلت الحديد أقدامي كيلا أكل عن إقدامي ، فأنا الموعود بالنجاة ، المعدود لنيل الجاه ـ المشدود للسلامة ـ المقصود للكرامة ، قد أجزل المنعم عَليّ إنعامه ، وأمضى بالعناية الأزلية أحكامه ، فإن الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة ، خلقت من الريح وألهمت التسبيح ، ما برح ظهري عزاً وبطني كنزا وصهوتي حرزا ، فكم ركضت في ميدان السباق ، وما أبديت عجزا ، وكم حززت رؤوس أهل النفاق حزا ، وكم أخليت منهم الآفاق هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . *

الفهرس

وصف الحصان العربي

قال النبي صلى الله عليه وسلم في صفة الخيل : « أعرافها أدفاؤها ، وأذنابها تذابُّها ، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وقال صلى الله عليه وسلم : عليكم بإناث الخيل ، فإن بطونها كنز ، وظهورها حرز وأصحابها معانون عليها » .

فقد روى أحمد من حديث أسماء بنت يزيد مرفوعا : الخيل في نواصيها الخير معقود إلى يوم القيامة ، فمن ربطها عدة في سبيل الله وانفق عليه احتسابا كان شبعها وجوعها وريها وظمؤها وأرواثها وإبوالها فلاحا في موازينه يوم القيامة . الحديث .

ولقوله في رواية زكريا كما في الباب الذي يليه : « الأجر والمغنم » وقوله : الأجر بدل من قوله الخير ، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هو الأجر والمغنم ووقع عند مسلم من رواية جرير عن حصين « قالوا : بم ذاك يا رسول الله ؟ قال : الأجر والمغنم » قال الطيبي : يحتمل أن يكون الخير الذي فسر بالأجر والمغنم استعارة لظهوره وملازمته ، وخص الناصية لرفعة قدرها وكأنه شبهه لظهوره بشيء محسوس معقود على مكان مرتفع فنسب الخير إلى لازم المشبه به وذكر الناصية تجريدا للاستعارة ، والمراد بالناصية هنا الشعر المسترسل على الجبهة ، وقد روى مسلم من حديث جرير قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرسه بإصبعه ويقول : فذكر الحديث .

ووصف أعرابي فرساً فقال : « إذا تركته نعس ، وإذا حركته

طار » .

« سأل المهدي مطر بن دراج عن أي خيل أفضل ؟ قال : الذي إذا استقبلته قلت نافر ، وإذا استدبرته قلت زاخر (أي ممتليء الكفل) ، وإذا استعرضته قلت زافر (أي ضامر البطن) .

قال المهدي : فأي هذه أفضل ؟

قال : الذي طرفه إمامه ، وسوطه عنانه » .

« وسأل الحجاج بن يوسف الثقفي أيوب بن القرية عن وصف الحصان الجيد فقال : القصير الثلاث ، الطويل الثلاث ، الرحب الثلاث ، الصافي الثلاث .

فقال صفهن : فقال : اما الثلاث الطوال : فالأذن ، والعين ، والذراع . وأما الثلاث القصار : فالظهر، والساق ، والعسيب » . وأما الثلاث الصافية : فالأديم ، والعينان ، والحافر . وقد جمع بعض الشعراء ذلك في بيت واحد فقال :

وقد أغتدى قبل ضوء الصباح وورد القطا في الغطاط الحثاث

بصافي الثلاث . عريض الثلاث قصير الثلاث ، طويل الثلاث

ونقلت هذه الرواية منسوبة إلى صعصة بن صوحان الذي سأله معاوية بن أبي سفيان : أي الخيل أفضل ؟ فأجاب بما سبقت الإشارة إليه .

من أطرف ما قيل في وصف الحصان العربي ، ما جاء في مقامات بديع الزمان الهمذاني .. قال :

« حدثنا عيسى بن هشام ، قال : حضرنا مجلس سيف الدولة بن حمدان يوما وقد عرض عليه فرس ، متى ما ترق العين فيه تسهل ـ فلحظته الجماعة وقال سيف الدولة :

أيكم أحسن صفته جعلته صلته . فكل جهد جهده ، وبذل ما

عنده .
وقال أحد خدمه : أصلح الله الأمير ، رأيت بالأمس رجلا يطأ الفصاحة بنعليه ، وتقف الأبصار عليه . يسأل الناس ، ويسقى اليأس . ولو أمر الأمير بإحضاره لفضلهم بحضارة .
فقال سيف الدولة : علي به في هيئته . فطار الخدم في طلبه ، ثم جاؤوا للوقت به . ولم يعلموه لأية حال دعي ، ثم قرب ، واستدنى وهو في طمرين قد أكل الدهر عليهما وشرب ، وحين حضر السماط لثم البساط . ووقف فقال سيف الدولة : بلغتنا عنك عارضة فاعرضها في هذا الفرس ووصفه .
فقال : أصلح الله الأمير ؛ كيف به ، قبل ركوبه ووثوبه ، وكشف عيوبه وغيوبه ؟ فقال سيف الدولة : اركبه ، فركبه وأجراه ، ثم قال :
ـ أصلح الله الأمير ، هو طويل الأذنين ، قليل الاثنين واسع المراث ، لين الثلاث . غليظ الأكرع ، غامض الأربع . شديد النفس ، لطيف الخمس ، ضيق القلت ، رقيق الست . حديد السمع ، غليظ السبع . دقيق اللسان ، عريض الثمان . مديد الضلع ، قصير التسع . واسع الشجر ، بعيد العشر ، يأخذ بالسابح ، ويطلق بالرامح ، يطلق بلائح ، ويضحك عن قارح ـ يحز وجه الجديد بمداق الحديد . يحضر كالبحر إذا ماج والسيل إذا هاج .
فقال سيف الدولة : لك الفرس مباركا فيه .
فقال : لا زلت تأخذ الأنفاس وتمنح الأفراس .
ثم انصرف وتبعته ، وقلت له : لك علي ما يليق بهذا الفرس من خلعة إن فسرت ما وصفت . فقال : سل عما أحببت . فقلت : ما معنى قولك : بعيد العشر ؟ .

فقال : الخطو وأعالي اللحيين ، وما بين الوثبتين ، والجاعرتين ، وما بين الغرابين والمنخرين ، وما بين الرجلين ، وما بين المنقب والصفاق ، بعيد الغاية في السباق .

فقلت : لا فض فوك ؛ فما معنى قولك : قصير التسع ؟

قال : قصير العشرة ، قصير الأطرة ، قصير العسيب ، قصير القضيب ، قصير العضدين ، قصير الرسغين ، قصير النسا ، قصير الظهر ، قصير الوظيف .

فقلت : لله أنت ؛ فما معنى قولك عريض الثمان ؟

قال : عريض الجبهة ، عريض الورك ، عريض الصهوة ، ، عريض الكتف عريض الجنب ، عريض اللبدة ، عريض صفحة العنق .

فقلت : أحسنت ، فما معنى قولك : غليظ السبع ؟

قال : غليظ الذراع ، غليظ المحزم ، غليظ العكوة ، غليظ الشوى ، غليظ الرسغ ، غليظ الفخذين ، غليظ الحافر .

قلت : لله درك ؛ فما معنى قولك : رقيق الست ؟

قال : رقيق الجفن ، رقيق السلغة ، رقيق الجحفلة ، رقيق الأديم ، رقيق أعالي الأذنين ، رقيق العرضين .

فقلت : أجدت ؛ فما معنى قولك : لطيف الخمس ؟

فقال : لطيف الزور ، لطيف النسر ، لطيف الجبهة ، لطيف الركبة ، لطيف العجاية .

فقلت : حياك الله ، فما معنى قولك : لين الثلاث ؟

فقال : لين المروغتين ، لين العرف ، لين العنان .

فقلت : فما معنى قولك : قليل الاثنين ؟

قال : قليل لحم الوجه ، قليل لحم المتنين .

قلت : فمن أين منبت هذا الفضل ؟

قال : من الثغور الأموية والبلاد الإسكندرية .
فقلت : أنت مع هذا الفضل ، تعرض وجهك لهذا البذل ؟
فأنشأ يقول :

ساخف زمانك جدا   إن الزمان سخيف
دع الحمية نسيا   وعش بخير وريف
وقل لعبدك هذا يجيئنا برغيف (المقامة الرصافية)

ولعل من نافلة القول إن للحصان العربي بنيته الخاصة التي تميزه عن بقية الجياد ، ومع ذلك فمن الخطأ قبول مقولة إن هنالك نوعاً واحداً من الخيول ذو سلالة عربية أصيلة ؛ إذ ثمة اختلاف في التفاصيل المتعلقة بالبنية أو الوصف بشكل عام ، فما بالك بالشايات والالوان . فبغض النظر عن الشايات والألوان ، يتميز هذا الحصان بقصر ودقة الرأس الذي تظهر عليه العروق بوضوح ، كما أن الصورة الجانبية تبدي تقعراً واضحاً في وجهه واحدودبا في الجبهة ، ورغم دقة خطمه فإن أنفه واسع ، ويتسع أكثر عند التنفس ، أما عيناه فواسعتان أيضا .

أما عظمتا فكيه فمستديرتان لدرجة تجعل من المستحيل إدخال قبضة اليد بينهما . وهناك ميزة هامة أخرى هي الحلقوم ، منطقة التقاء الرأس بالرقبة ، فهنا كلما كبر القوس ، سهل تحريك الرأس في كل الاتجاهات .

للحصان العربي ١٧ ضلعا ، وخمس فقرات في أسفل الظهر ، و١٦ فقرة في الذيل ، بينما للحصان غير العربي ١٨، ٦ ، ١٨ على التوالي . ولعل هذا التكوين العظمي هو الذي يفسر الشكل المميز للظهر والوقفة ، ورفع الذيل عند الحركة

. وللحصان العربي حركة تموجية تعطي إحساسا بأنه يتحرك على (يايات) لا ترى بالعين المجردة ، أما ارتفاعه العادي فيتراوح بين ١٥٠ و ١٥٢ سم . كما أن الاستجابة للمحفزات الخارجية تختلف من جواد إلى آخر . وبخصوص الرؤية فالجواد يستطيع الرؤية في نطاق ٢١٥ درجة بكل عين تمكنه من رؤية منظر شامل وعريض بحوالي ٣٦٠ درجة ، ومع أن الرؤية في ضوء النهار هي الأفضل ، فإنها في الليل لدى الخيول هي أفضل مما لدى الإنسان .

ولعل أكثر الأماكن حساسية للمس هي المنطقة المحيطة بالرأس .. كما يستدل على آلام الخيول من المظهر ، وتعابير الوجه ، ونبرات الصوت ، وسرعة النبض ، والتنفس ، والتعرق ، والرعشات العضلية .

والغالب على الخيول ـ حتى وهي حديثة الولادة ـ النعاس بعد الأكل . فالنوم بالاضطجاع ، أو في حالة الرقود ، ولكنه يرتاح للنوم واقفا .

الخيل في الأدب العربي

حظيت الخيل بعناية المؤلفين القدامى . فأفردوا لها الكتب والرسائل ، والفصول في الكتب ، وتابعهم المتأخرون في هذه العناية ، وقد وصل إلينا جزء يسير مما ألف الأقدمون وضاع الكثير ، وقد يتعارض كلامي هذا مع رأي أحد الأدباء الذي يرى أنه لا يوجد مخطوط ولا مطبوع سابق إلا قامت عليه دراسة أو تحقيق ، أو إعادة طبع ، غير أنني أرى أن كثيراً من تلك المؤلفات في كل الفروع لم تصل إلى المطابع ، ومنها الدراسات الخاصة بالخيل .

ولعل دليلي على ذلك تلك الهجمة الضارية التي قام بها التتار على المؤلفات والمخطوطات وإغراقها في نهر دجلة . لكننا لا نعدم من علوم الخيل وأنسابها والعناية بها ، مافيه غناء . فالمصادر التي ساعدت على خروج هذا الكتاب كثيرة جداً ، مما يعني بحق الاهتمام بهذا المخلوق الجميل الذي يقف على بوابة التاريخ القديم والحديث بكل فخر واعتزاز .

ولعل شعراء العربية هم أهم من رصدوا هذه القيمة الحياتية في حياة الإنسان العربي بكل ما يرتبط بتلك الحياة ، ولم يسبق العرب قوم في هذا المضمار ؛ فما من شعر يشدو بالحب ، أو الحرب والصيد أو الطراد ، إلا أعطى منه الشاعر للخيل نصيبا ، وخلع عليه من الصفات الشيء الكثير ، فتلك أبيات منسوبة إلى حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) في وصف فرسه ـ ورد ـ :

ليس عندي إلا السلاح وورد

قارح من بنات ذي العقال

أتقي دونه المنايا بنفسي
وهو دوني يغشى صدور العوالي
كما ينسب لعبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال :
أحبوا الخيل واصطبروا عليها
فإن العز فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضيعها اناس
ربطناها فأشركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم
ونكسوها البراقع والجلالا
وذاك امرؤ القيس صاحب البيت الأكثر شهرة وشيوعا وهو :
مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من علٍ
وهذا صفي الدين الحلي كان يفاخر بالعرب وبالخيول العربية في أبيات من أروع وأدق عبارات الوصف حول نشأة العربي وتعلقه بحب الخيل فيقول :
إذا افتخر الأقوام يوما بمجدهم
فإنك من قوم بهم يفخر المجد
تعود متن الصافنات صغيرهم
إلى أن تساوى عنده السرج والمهد

اهتمام الإنسان العربي بالخيل والمحافظة عليها

يتمثل اعتزاز العرب بخيلهم الغاية القصوى ، بحرصهم الشديد بالمحافظة على هذا النسل النبيل من الخيل ، الذي كان مقدراً له أن يصبح قبلة أنظار العالم .

وعن مدى عطف الإنسان العربي وحبه للخيل ، جاء في فصل من فصول كتاب (بوركهاردت) قوله : « لا يدع البدو ما يلده الفرس يسقط على الأرض عند ولادته ، بل يتلقونه بأيديهم ، ويحيطونه بالشفقة والحفاوة عدة ساعات ، يقومون خلالها بغسله وتمغيط أطرافه ، والتربيت عليه كما لو كان طفلاً ، وبعد ذلك يضعونه على الأرض ، ويراقبون خطواته الضعيفة برعاية خاصة ، متكهنين في ذلك الوقت بمزايا رفيقهم الجديد وعيوبه في المستقبل .

ومع أن العرب لم يكن لديهم سجل ، فإن جميع القبائل تحفظ نسب الإناث من الخيول العربية ، وتدور الأساطير حول الخيول العربية وفرسانها .. من الأساطير تلك .. أسطورة تقول : إنه لما وقع ـ سيل العرم ـ ، فرت الخيول مع الوحوش إلى القفر ، ولم تلبث أن ظهرت خمس من كرمائها في بلاد نجد ، فخرج خمسة من الأعراب في طلبها ، فراقبوها ، حتى رأوها ترد العين الوحيدة في تلك المنطقة ، فجاؤوا بخشبة طويلة شكوا بها الأرض قرب العين ، فجفلت الجياد من الخشبة ؛ فاشتد عليها العطش ، فرجعت إلى العين وشربت ، وسرحت . وفي اليوم التالي جاؤوا بخشبة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، حتى قامت دائرة خشبية حول العين ، وأبقوا فيها

فرجة للدخول والخروج ، وقد ألفت الجياد رؤية الخشب ، وعند ورود الجياد العين ، أسرع الرجال وسدوا عليها الفرجة ، وحبسوها في الدائرة المسورة بالخشب ، وأبقوها حتى أنهكها الجوع ، وصاروا أثناء ذلك يروحون ويجيئون ، ويحومون حولها ، يقدمون لها الكلأ ، حتى تعودت على رؤيتهم ، وأنست لهم ، وتمكنوا من امتطاء ظهورها ، وخرجوا بها يطلبون مضاربهم .

في الطريق نفد زادهم ، وخربهم الجوع ، فاتفقوا على السباق ، ومن قصر عن الركب ذبحت فرسه وأكلوها ، وجعلوا لصاحبها حظاً من الجياد الأربعة الباقية ، وتسابقوا ، فتأخرت واحدة من الخمس ، فعزموا على ذبحها ، لكن فارسها رفض ، مصراً على وجوب إعادة السباق ، فاعادوه ، وتأخرت الثانية ، فأبى فارسها ، وطلب إعادة السباق أسوة بالأولى .. وكهذا تكرر السباق ، وتأخرت الثالثة فالرابعة فالخامسة ، وأبى أي فارس أن تذبح فرسه ، وبينما هم على هذا الحال ، لاح لهم قطيع من الغزلان ، فطاردوه ، وظفر كل واحد بغزالة فأكلها ، وسلمت الأفراس .

وسمى هؤلاء الرجال الفرس الأولى (الصقلاوية) لصقالة شعرها ، وكان اسم صاحبها ـ جدران ـ فعرفت بصقلاوية الجدران .

وسموا الفرس الثانية (أم عرقوب) ، لالتواء عرقوبها ، وكان اسم صاحبها ـ شويه ـ ، فعرفت بـ أم عرقوب شويه .

وسموا الفرس الثالثة (شويمة) ، لشامات بها ، وكان اسم صاحبها ـ سباح ـ ، فقالوا لها : شويمة سباح .

وسموا الفرس الرابعة (كحيلة) ، لكحل في عينيها ، وكان

اسم صاحبها ـ العجوز ـ ، فاشتهرت باسم كحيلة العجوز . وسموا الفرس الخامسة (عبية) ، لأنها عندما جرى السباق ، وقعت عباءة فارسها على ذيلها ، فأبقت ذيلها مرفوعاً ، والعباءة به إلى آخر الشوط ، وكان اسم صاحبها ـ شراك ـ ، فقيل لها عبية شراك .

ولأهمية الحصان ودوره الكبير في الفتوحات فقد كانت الخيول في حاجة ماسة إلى فترة كافية من الراحة والهدوء والتغذية الجيدة ، وهذا ما حققه له القائد الفاتح عمرو بن العاص خلال رحلة الربيع ـ أي الخروج إلى ريف مصر في فصل الربيع ـ للارتباع والاستجمام ، وكانت تعليمات عمرو إلى الفرسان في العناية بخيولهم صريحة بقدر ما هي صارمة أذ يقول : « ...... واربعوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم ... ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته (مرتبه) قدر ذلك .... » .

ولم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة أو المظهر الوحيد للاهتمام الذي كان يتمتع به الحصان ، لدرجة أنه عند تخطيط مدينة الفسطاط رتقسيمها إلى أحياء مقسمة على القبائل لم ينس المهندسون الذين أشرفوا على التخطيط ان يخصصوا الفضاء الممتد بين حصن بابليون ونهر النيل لتعريق الخيل وتأديبها ، وحمل هذا الفضاء الاسم الطبيعي له وهو : المضمار .

وحدث أن كان معاوية بن حديج ـ أحد قادة الفتح ومن كبار زعماء القبائل ـ يمر قريبا من ذلك المضمار ، فلفت نظره رجل على كثيب ممسكا برسن فرسه ، فأرسل غلامه لينظر مَنْ الرجل فإذا هو بأبي ذر الصحابي الكبير الشهير وكان قد أقام بمصر بعض الوقت عند فتحها ، أدار ابن حديج فرسه وسار نحو أبى ذر الذي كان منهمكا في العناية بفرسه ، ألقى ابن حديج نظرة فاحصة خبيرة على حصان أبي ذر فلم يجد فيه من المزايا ما يوجب كل هذا الاهتمام به من أبى ذر ، فسأله مستفسرا : يا أبا ذر : إني أرى هذا الفرس قد عناك ، وما أرى عنده شيئا . قال أبو ذر : هذا الفرس قد استجيب له ، وأدهش بن حديج أن يسمع الصحابي الوقور والذي شهد له الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم [وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر] إذ يقرر ليس فقط امكان صدور الدعاء من فرس ، بل أيضا إمكان استجابة السماء لدعوة ذلك الفرس ، فسأله مستنكرا : وما دعوة بهيمة من البهائم ؟ أجاب أبو ذر العليم بوثاقة العلاقة بين الفرس وفارسه ، وارتباط كل منهما بصاحبه ارتباطا حياتيا :[أنه ليس من فرس إلا أنه يدعو الله كل سحرية : اللهم أنت خولتني عبدا من عبيدك وجعلت رزقي بيده ، اللهم أجعلني أحب إليه من ولده ومن أهله وماله] .

الرافض .. والجلاد

ولعل من الأشياء البارزة التي تربط بين الفارس والفرس هو عدم تمكين الخيل غير فرسانها اعتلاء ظهورها ، وامتطاء صهواتها . وهناك قصة في كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري جـ ٢ ، أنه حدث في زمن الحروب الصليبية ، وتلك الحروب التي كانت بين السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي مع الملك ريكاردوس الإنجليزي الملقب بـ (ريتشارد قلب الأسد) ، قيل : إن جواد الملك ريكاردوس نفق إذ كان يهاجم به في مقدمة رجاله ، ولاحظ القائد المسلم الواعي اختفاء ريكاردوس ، ولم يره بين المقاتلين ، فسأل عنه فقيل له : إن جواده قُتل وإنه يقاتل وهو راجل ، فأخذت الأيوبي عزة النفس ، فأمر أحد أعوانه بإحضار جوادين كريمين من جياده ، وأرسلها إلى ريكاردوس مرددا كلمة مشهورة ، تدل على غاية النبل : (لا يليق بنا أن نقاتل الملوك كأحد الأفراد) ، وقبل الملك ريكاردوس الجوادين شاكرا ، ووهب أحدهما إلى أحد قواده ، وركب الآخر ، فلما علا ذلك القائد صهوة الجواد اندفع به نحو معسكر السلطان صلاح الدين ، وعجز فارسه عن إيقافه أو تحويله .. حتى صار وسط أعدائه ، فقبضوا على هذا الفارس وجاؤوا به إلى صلاح الدين ، فأعطى الفارس جواداً آخر وأعاده إلى معسكره ؛ وصلاح الدين بفعله هذا زادت شهامته مع أعدائه شهامة ، ونبله نبلا ، وتقبل من فرسه وفاءه ، وقبل عودته والقصة كما نقلتها لا تحمل اسم هذا الجواد الذي اقترح تسميته بالأشم أو المعتز .

وهناك قصة أخرى لم تحمل اسما للحصان البطل الذي يليق

به اسم الجلاد وقصته نقلا عن التراث تقول : إنه كان من عادة ملوك العجم ، أن يجلس الملك منهم لعامة الناس في يومي (المهرجان) أو (النيروز) لا يمنع من ذلك أحد ، وكان يأمر مناديا بأن ينادي في الناس قبل أيام من حلول كل من اليومين المذكورين ليعدوا انفسهم لذلك اليوم ، حتى يتمكن كل شخص من أن يهيىء أمره ويكتب شكواه بنفسه ، ويشرح فيها حاله ويعرض حاجته ، ويسلمها بيده هو ، وحتى يتدبر الخصوم أمرهم أيضاً .

وفي اليوم الموعود ينادي المنادي خارج القصر : « إن الملك برىء من دم كل من يمنع أحدا عن عرض حاجته في هذا اليوم » . بعد ذلك يجمع الملك شكاوى الناس جميعها ويضعها أمامه ، ثم ينظر فيها واحدة تلو أخرى . فإذا ما كان بينها واحدة ضد الملك نفسه ، فإنه ينزل عن سريره ، ثم يجثو على ركبتيه أمام موبذ المبذين ـ أي قاضي القضاة بلغتهم ـ الذي كان يجلس عن يمينه عادة ، ويقول له : « أنصف هذا الرجل مني دون ميل أو محاباة قبل أن تنظر في أي قضية أخرى » .

حينئذ يأمر المنادي أن ينادي : (على من لهم شكاية ضد الملك أن يقفوا صفاً واحدا ، للفصل في قضاياهم أولاً) . ثم يقول الملك للموبذ : إن معرفة حق نعمة الله على الملوك إنما تكون في المحافظة على الرعية وإنصافها ، وكف أيدي الظالمين عنها .

والآن أيها المبذ ، اتق الله ، وإياك أن تؤثرني على نفسك ، لأنني سأسألك عن كل شيء يسألني الله تعالى عنه يوم القيامة ، وألقي بتبعته عليك ، ويشرع الموبذ ينظر في

القضايا ، فإذا ما ثبت لأحد على الملك حق أنصفه إنصافاً تاماً ، وإذا ما اتضح بطلان دعوى آخر ضده ولم تكن لديه حجة دامغة أنزل به أقصى العقوبات ، وأمر منادياً ينادي : هذا جزاء من يترصد العيوب على الملك والمملكة ، ويفتري عليهما الكذب بهذه الجسارة والجرأة .

وبعد انتهاء المحاكمة ، كان الملك يعود إلى سريره ، ويلبس التاج ، ثم يلتفت نحو رجاله وكبار دولته ، ويقول : « إنما بدأت بنفسي أولاً ، لتقطعوا عنكم دابر الطمع في ظلم الآخرين ، إن على كل من له خصم منكم أن يسترضيه الآن » . وفي ذلك اليوم ، كان أقرب الناس إليه أبعدهم منه ، وأقواهم أضعفهم .

ومنذ عهد أردشير إلى أيام يزدجرد الأثيم ، والملوك يسيرون على ذلك المنوال ، إلا أن يزدجرد ، استبدل سنن آبائه بأخرى سيئة ، وجعل الظلم شريعة في الأرض ، فسيم الناس الخسف ، ومنعوا النصف ، وراحت أدعية الشر تترى عليه من كل حدب وصوب .

وحدث أن دخل إلى قصر يزدجرد فرس معري فجأة أقر كل من كان حاضراً من عظماء الدولة بحسن شياته ، وعبثا حاولوا إيقافه إلى أن انتهى إلى يزدجرد نفسه ، ووقف أمامه بجانب الإيوان هادئاً . فقال يزدجرد : « قفوا بعيدا ، فما هذه إلا هدية بعث بها الله تعالى » . وتقدم منه رويدا رويدا ، واستلم عنانه ، وأخذ يربت على وجهه وظهره ، ثم امتطى صهوته ، فلم يبد حراكا ، وظل هادئاً كما كان . وطلب يزدجرد لجاما ، وسرجا ، فألجمه وأسرجه ، وأحكم حزمه . ولما هم بوضع المذيلة ، رفسه على رأس قلبه فجأة فقتله

، ومضى خارجا دون أن يعترض سبيله أحد . ولم يستطع أحد أن يعرف من أين جاء وإلى أين ذهب . وأجمع الناس على أن الفرس لم يكن سوى معجزة أرسلت لتخليصهم من هذا الظالم ، كان جنديا من جنود الله ليحقق القصاص العادل .

[وما يعلم جنود ربك إلا هو]

أشقر صدف الطائر المحارب
عندما يتحول إلى فارس .. وينتصر لتكبيرة المصلين

لما دخل العربي مصر كان معه زميل يشاركه صفات الأصالة العربية ؛ ذلك هو الحصان ومثلما لمع فرسان وأبطال لمعت بنفس القدر جياد صنعت بطوله وفروسية ومنها (أشقر صدف) ، الذي تميز بالسرعة الفائقة التي شكلت عاملا هامافي اكتشاف واحة الفيوم وفتحها ، ثم حماية المسلمين من غارات الروم الليلية قبيل الاستيلاء على حصن بابليون ، ثم المساهمة في انقاذ الفرسان المحاصرين فوق كوم شريك .

كان (الأشقر) هو الحصان الوحيد في كتائب الفرسان التي كانت تعبر حدود مصر وكان أرشق وأجمل الأفراس جميعا .. فماذا يقول عنه صاحبه أبو نعامه ؟

: « منذ أربع سنوات فقط كنت أعبر حدود مصر الشرقية لأول مرة مع فرسان الجيش العربي الزاحف من فلسطين إلى أرض مصر تحت إمرة عمرو بن العاص . كان فرسي الذي اعتلي صهوته يتألق في ضوء الشمس كقطعة من الذهب ، يدق الأرض بحوافره القوية ، ويتقوس عنقه المتين إلى أعلى في كبرياء .

كلفني عمرو أن أسير جنوبا بغرب ، ولم يكن أسهل على ، ولا أحب إليّ من مثل هذه المهمة . فقوسي علي عاتقي ، وسيفي إلى جانبي ، وتحتي فرسي الأشقر بأذنيه المرهفتين اللتين تتصيدان النبأ ، وعينيه الحادتين اللتين تكشفان حتى الأشباح ، وساقيه الصلبتين اللتين تسبقان الريح نفسها .

أخذت الجانب الغربي للنيل متجها نحو الجنوب ، وسرت لا أرى عن يميني سوى الحقول الخضراء التي ما تزال تنبسط حتى تلتقي بالأفق الغربي البعيد ، تتخللها آجام النخيل الكثيفة ، وتتناثر فيها القرى الغارقة في الضوء والسكون .. عن يساري يجري النيل ، وكلما اقتربت من قرية لكزت الأشقر فينطلق كومضة برق ، ويعبر القرية قبل أن تسترد النسوة شهقاتهن ، والرجال صيحاتهم ، وبعد حوالي خمسين ميلا انقطعت الأرض الخضراء ، واختفت القرى ، ولم يعد عن يميني سوى رمال صفراء صامتة ولكنها تحمل آثار أقدام الناس والدواب ، فتابعتها ومضيت أسير غربا، مستقبلا رائحة الصحراء التي طال بعدي عنها ، ثم وجدت واحة كبيرة ضخمة ، ترتفع فيها المئات من أشجار النخيل تتراءى البيوت الآهلة من بين جذوعها ، تحيط بها كروم العنب وحدائق الفاكهة ، وتنبسط خارجها الحقول الخصبة ، هذه اذن ـ بيوم ـ الواحة الجميلة التي طالما سمعنا من أسرانا بوجودها هناك ،

تمنيت لو أطلت الوقوف املأ عيني بمعالم الواحة ومفاتنها ، غير أني انتبهت إلى الأشقر اليقظان وهو يرفع قائمتيه في الهواء ، ويستدير بعنقه نحوي لينبهني إلى عدد من جنود الروم يركضون نحونا على خيلهم ، أدرت عنان الأشقر ، ولكزته لكزة أنطلق معها يسبق الريح ، ويثير الرمال . كنت أسمع حوافر جياد الروم تضرب الأرض من ورائنا ، وسهامهم تحاول إصابتنا ، ولكن كل لحظة تمضي كانت تباعد ما بيننا وبينهم ، ولم يكن الأشقر يجري وأنما يطير ، ويئس الروم من إدراكنا فتوقفوا وانقلبوا راجعين ، ومضى

الأشقر ينهب الأرض نحو الشمال ، لم يتوقف سوى مرتين أو ثلاثاً حتى بلغنا معسكرنا عند حصن بابليون ، وأفضيت إلى عمرو بما لقيت ، وبعد أيام قليلة كانت معركة الفيوم » .

ويستكمل الفارس أبو ناعمة ـ صاحب الأشقر ـ حديثه حول ذكرياته مع هذا الحصان الرائع فيقول :

« كنا في قلب الشتاء الثاني لنا في مصر، ولأنني غبت عن المعسكر أياما في مهمة خاصة وجهني فيها أميرنا عمرو ، ولما عدت سمعت زملائي الفرسان يذكرون أمرا عجبا ، قالوا إنهم كلما وقفوا لصلاة الصبح فوجئوا بجندي روماني يتسلل من خلفهم ، حتى إذا سجدوا انقض عليهم في خفة الفهد ، وراح يعمل فيهم سيفه في سرعة ومهارة ، فيقتل من يقتل ويجرح من يجرح ، حتى إذا انتبهوا إليه ، انفلت هو إلى برذون له أشهب يقف في مكان قريب ، فوثب إليه وفر عائدا إلى الحصن ، وكم أسرع بعضهم إلى جيادهم فركبوها ، وركضوا خلفه يطاردونه ، ولكنه في كل مرة كان يسبقهم جميعا ويختفي داخل أسوار الحصن المنيعة قبل أن يدركوه .

غلا الدم في عروقي ، وتطاير الشرر من عيني ، وتصلبت يدي على مقبض سيفي عندما سمعت هذا الكلام ، كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ أدرت ظهري لرفاقي وانصرفت ، أن عليّ وحدي تقع مسؤولية وضع حد لهذه الغارة الخبيثة ، غير أني ـ في الحق ـ لن أكون وحدي ، إذ لابد أن يكون صديقي العزيز الأشقر معي .. كما هو معي منذ أن خرجنا من شبه الجزيرة مع جيوش الفتح منذ عامين ، لم يفارقني

، ولم أفارقه ، أصبحنا صديقين حقيقيين ، أسمع منه ويسمع مني ، وأفهم عنه ويفهم عني ، وأخاف عليه ويخاف عليّ ، وأتودد إليه ويتودد إليّ ، بيني وبينه كل ما بين الصديقين من حب وود ، وموثق وعهد ، ومشاركة وفهم ، وعطاء وبذل .

وكان السّحر التالي ، والفرسان يستيقظون تباعا ، فيتوضؤون وينشطون ، حتى إذا انطلق صوت أحدهم يشق السكون ، ويهز الوجود داعيا إلى الصلاة وقفوا جميعا خلف أميرهم في صفوف منتظمة متلاحمة .

لم أكن حينذاك بين رفاقي الواقفين للصلاة ، ولعل أحدا منهم لم ينتبه إلى غيابي ، وإنما كنت كامنا مع حصاني الأشقر خلف تل ترابي صغير قريب من مكان الصلاة أرهف السمع ، وأحد البصر ، وأتشمم الهواء .

لم تمض لحظات حتى تناهى إلى سمعي وقع أقدام ثقيل مكتوم ، التفت إلى الأشقر فوجدته يتجه برأسه وأذنيه وعينيه نحو مصدر الصوت القادم في اتجاهنا من ناحية الحصن ، لم تمض لحظات أخرى حتى تبينت في جوف الظلام شبح الفارس الروماني ، على ظهر برذونه ، يأخذ طريقه نحو جماعة المصلين في حذر وتصميم ، صبرت عليه حتى ترجل ومد يده إلى حسامه ليمتشقه ، وفي مثل لمح البصر طرت إليه بحصاني ، ولكنه أحس باقترابي فوثب إلى برذونه وانطلق يعدو إلى الحصن ، غير أني لم ألبث حتى أدركته ، ثم سبقته بخطوات ووقفت أمامه أسْد الطريق عليه .

ترجل عن برذونه فترجلت عن فرسي ، ودارت بيننا مبارزة

شرسة بالسيف لم تلبث حتى انتهت عندما أغمدت سيفي في صدره ، ثم انتزعته لأفصل به رأسه عن جسده وأنا أملأ الجو بالتكبير والتهليل ، وهنالك فقط انتبهت إلى الأشقر وهو يصهل صهيلا حادا ، التفت إليه لأرى أغرب ما يمكن أن تقع عليه عين ، البرذون الأشهب ملقى على الأرض يشحج في ألم ورعب ، ويضرب الهواء باقدامه ، في حين يتدفق الدم بغزارة من عنقه الذي قضمه الأشقر قضمة كبيرة عميقة بفكيه القويتين ، ولم يكتف بذلك ، بل راح يهوى على رأسه وبطنه بركلات قاسية من حوافره الصخرية .

كان البرذون * يلفظ أنفاسه الأخيرة ، في حين كان صاحبه يرقد مجندلا وقد فارق الحياة تماما . أخذت بعنان الأشقر ربت على جسده الذي ينضح عرقا اهنئه وأشكره ، واستدرت لأواجه نفرا من رفاقي الفرسان الذين خفوا إلى المكان على هتافي وصهيل الأشقر . قال أحدهم : حياك الله أبا ناعمة ، وحيا صاحبك الأشقر لقد ثأرتما لنا وشفيتما صدورنا » .

كان هناك تحرك للقوات باتجاه الإسكندرية ، مخترقة وسط الدلتا بعد أن دارت معركة أمام المدينة المصرية العريقة (نقيوس) وذلك لمطاردة بعض من فلول الروم الهاربة إلى الإسكندرية ، وكانت الكتيبة التي اختارها القائد عمرو من الفرسان الشجعان منهم الفارس أبو ناعمة وبقيادة شريك بن سمى الغطيفي ، ولما ساروا إلى مدينة (ترنوط) عبروا عندها الفرع الغربي للنيل ، ثم أداروا خيولهم ناحية الشمال ، وكانت هناك مفاجئة تنتظرهم !! حيث تجمعت قوات الروم بعد أن لمت شتاتها ، ونظمت صفوفها ، ووقفت تسد على الفاتحين طريقهم إلى الشمال

ومستعدين لملاقاتهم في معركة جديدة ، وكان من المستحيل التراجع فهو الخزي والعار ، وكذلك الدخول في المعركة معناه ابادة مؤكدة لهذه الكتيبة .

وفكر القائد شريك فأمر بعض الفرسان بالاشتباك في منازلات فردية ، وأثناء ذلك انحازت الكتيبة إلى تل ترابي عال كبير على جانب الطريق بعيدا عن متناول سيوف الروم وعن مرمى سهامهم .

وكان الموقع على قمة التل منيعا ، ولكنهم لن يستطيعوا البقاء هناك إلا بضعه أيام ينضب بعدها ماؤهم وينفد زادهم ، ولعل الأخطر عندما تفرغ سهامهم فيصبحون فريسة سهلة لجنود الروم المعسكرين عند أسفل التل يتربصون بهم .. وكان لابد من اختراق الحصار وإبلاغ الأمر إلى عمرو الذي لم يتحرك بعد من نقيوس .. وإذا كان السبيل الوحيد هو نزول فارس بفرسه ليخترق معسكر الروم فمعنى هذا أنه عمل انتحاري ، لأن ذلك الفارس لن يقترب من الروم حتى تكون سيوفهم قد جندلته هو وحصانه في غمضة عين .

لكن نجاح العملية يتوقف على السرعة الخاطفة ، ولم يكن لها سوى الأشقر ، ومهما ضربنا المثل في السرعة لن نقف على هذا الجمال الذي حدث ، فقد كان الأشقر مثل طرفة العين قد اخترق الحصار مع فارسه دون أن تمس منه شعرة ، فانطلق الفارس ابا ناعمة مع الأشقر ناحية الجنوب ليعبر النيل من ترنوط شرقا ماضيا منها إلى نقيوس حيث المعسكر ثم أنهى إلى عمرو المأزق ، فأصدر أمره إلى الجيش الكبير بالتحرك ، وما إن سمع

الروم بتحركه حتى امتلأت قلوبهم رعباً ففكوا الحصار عن التل واستأنفوا الفرار .. وأصبح التل يسمى (كوم شريك) .

لذلك لم يكن مستغربا عندما نفق الفرس الأشقر أن يقوم أبو ناعمة بتجهيزه لدفنه عند خوخة في داره بعد أن رفض أن يلقي جثمان صديقه على الأكوام خارج الفسطاط حيث تطرح عادة الجيف والدواب ، وأبى الا أن يدفن كما يدفن المحاربون الأبطال ، وأن يكون مرقده الأخير أقرب ما يكون إلى داره ، ملازما له يستجيب لقلبه كلما خفق ، ولصوته كلما تحدث .

---

* في حديث أبو ناعمة الذي تناول قصة صديقه الأشقر كان يصف خيل الفارس الروماني بالبرذون وتكرر ذلك اللقب الذي يدلل به أبو ناعمة على أن حصان الروماني لا يرقى إلى مستوى الخيول العراب الأصايل ، ذات النسب معروف والبرذون مجهول النسب .

القادسية
موقف رجال .. ورجاحة عقل

لاشك أن موقعة القادسية لها مكانتها في قلوب المسلمين ، ولعل ما ورد حولها من قصص ومواقف ، والتي سجلت للمسلمين انتصاراً رائعاً تفخر به الأجيال لشجاعة الرجال وموقفهم المميز ، بداية من لحظة وقوف الوفد الذي بعث به سعد بن ابي وقاص أمام يزدجرد ، الذي حملهم التراب على رؤوسهم ، عندها استبشر جيش المسلمين بالظفر على عدوهم ، والقصة كما جاءت في كتاب البداية والنهاية لابن كثير .. « عندما قال المغيرة ابن شعبة للملك يزدجرد : إن عليه اتباع دين الاسلام ، فيكون له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو دفع الجزية وهو صاغر ، وإلا سيكون السيف أمامه ، قال يزدجرد : أتستقبلني بمثل هذا ؟ فقال ما استقبلت إلا من كلمني ، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به . فقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي . وقال : ائتوني بوفر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من أبيات المدائن ؛ ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه وجنده في خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد ما نالكم من سابور ، ثم قال : من أشرفكم ؟ فسكت القوم فقال عاصم بن عمرو التميمي وقد ظن أنه سيقتل ، أنا اشرفهم . وكرر عليه السؤال ، فقال أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء ، فأمر بتحميله التراب ، فقال كذلك ؟ فقالوا

نعم ، فحمله على عنقه فخرج به من الإيوان .... حتى علم سعد فقال ابشروا فقد والله أعطانا أقاليد ملكهم .

كان سعد بن أبي وقاص قد حبس أبي محجن الثقفي في القصر بعد أن سمعه يقول أبياتا في الخمر ، فلما كان يوم القادسية ، سمع أبو محجن التكبير والنفير ، فالتفت إلى أمة لسعد يقال لها : زبراء ، فقال : ويحك يا زبراء ! ما حال المسلمين ! فقالت : أظن والله الدائرة على المسلمين وقد قتل منهم جماعة ، فقال أبو محجن : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أخاف أن يذهب الناس بشرف هذا اليوم ، فينالون الدنيا والآخرة وأنا موثق بهذا الحديد ، فلعن الله الخمر ولعن أبا محجن إن شربها بعد هذا اليوم ، ثم أقبل على سلمى امرأة سعد وجاريته زبراء فقال : أطلقاني ولكما الله علي راع وكفيل إن أنا سلمت ولم أقتل أن أرجع إليكما وأضع رجلي في القيد كما كانت ، قال : فلما سمعت المرأتان يمينه وما أعطاهما من العهد والميثاق أطلقتاه فأخرجتا رجله من القيد ، فقال لهما : أعطياني اليوم هذه الفرس البلقاء ، وأعطياني سلاح سعد حتى أخرج فأقاتل وأرجع إليكما إن شاء الله عز وجل إن لم يحدث علي حدث ، فدفعتا إليه فرس سعد البلقاء فأسرجها وألجمها ودفعتا إليه درعا ومغفرا وسيفا ورمحا ، فتقلد بالسيف وتناول الرمح واستوى على الفرس ، وسار حتى اختلط بالمسلمين متلثما لا يعرف ، ثم ضرب بيده إلى سيفه فاستله ثم حمل ، فلم يزل يقاتل بالسيف مرة ويطعن بالرمح مرة ، وتارة يحمل على القوم فيقاتل قتالا شديدا لم ير الناس بمثله ، والمسلمون لا يعلمون من هو ، غير أنهم عجبوا من قتاله

وسعد بن أبي وقاص ينظر ويقول : أما البلقاء فهي بلقائي ، وأما السلاح فسلاحي لا شك فيه ، واما الحركات فكأنها حركات أبي محجن الثقفي ، ولولا أن أبا محجن في القصر لقلت : هذا أبو محجن ، ورجع أبو محجن إلى القصر ، فنزل عن البلقاء فحط عنها السرج واللجام وأقامها على مزودها ، ونزع سلاحه ، ودعا بالقيد ، فوضع رجله كما كانت .

عندما دخل سعد يتفقد أبا محجن والبلقاء وجد البلقاء تشاغل عند المزود ولا أثر للمجهود باديا عليها ولا تعرق ، وكأنها تساعد في التغطية على ما قام به البطل السميدع أبو محجن ، فتعجب سعد لذلك وعفا عن أبي محجن الثقفي الذي أقسم ألا يعود للخمر مرة أخرى .

الخطار

من الخيول التي فرضت وجودها على بعض الأحداث نجد هذا الحصان الذي لعب دورا مهماً أثناء حركة تمرد وإن جاءت نهايته على أغرب ما يكون ، لأنه عندما ثار المصريون على الخلافة الأموية سنة (٦٤ ـ ٦٥ هـ) لعب الخطار أحد خيول مصر المشهورة دورا في هذه الثورة التي اخفقت وخضعت مصر بعدها لحكم عبد العزيز بن مروان طول واحد وعشرين عاما ، فلما رأى الخطار اشتهى أن يقتنيه ، لكن صاحبه لبيد بن عقبة السومي رفض أن يتنازل عنه ، وكيف يتنازل فارس عن فرسه ولو لأمير ؟

كبر على الأمير ذي السلطان المطلق أن يستعصي جندي على إرادته ، فسيره في الجيش المصري الذاهب لغزو افريقية عقابا أو انتقاما .

صحب لبيد زميله الوفي (الخطار) ومضى ، وفي معارك افريقية تحقق الاحتمال القوي الذي كان الأمير يتوقعه ، ونجح انتقامه ، فقد قُتل لبيد ، مات الفارس . وبقى الفرس الممتاز ولكنه ضم إلى غيره من الخيول يقاسمها حياتها اليومية كأي حصان عادي ، ومع الأيام استترت مزايا الجواد الأصيل خلف معرفة مهملة وذيل طويل .

تكدست الخيل التي فقدت فرسانها عند موسى بن نصير ، فاتح المغرب ، وأراد أن يتخفف منها فانتقى مجموعة فيها الخطار وأهداها إلى أميره عبد العزيز بن مروان ، فسر الأمير أيما سرور فقد أتت خطته كل ثمارها ، تخلص من

الفارس المعارض و آل إليه جواده لكن هناك مشكلة : كيف يميزون الخطار بين تلك الخيول كلها ؟ حاولوا كثيرا ، ولكنهم لم يجدوا من يعرفه بعد أن غير الإهمال مظهره ، فلم يكن بد من اللجوء إلى الحل الأخير ، فقالوا : ابنة لبيد ، فأرسل عبد العزيز وراءها . فقالت لمن أتاها : إني امرأة فاخرجوا عني ، وطلبت أن تترك وحدها ، ودخلت ابنة الفارس الحظيرة ، ومضت تفحص كل حصان وسرعان ما اهتدت الفتاة إلى حصان أبوها الفارس الأشم ، وجاش صدرها بعاطفة هي مزيج من الحب والأنفة والرغبة في الثأر ، وصممت على تحرم صهوته على كل إنسان بعد أبيها . فتقدمت إليه وهي تقسم : « والله لا يركبنك أحد بعد أبي سويا » ، ومدت يدها فقطعت أذنيه ، وهلبت ـ أي نتفت ـ ذنبه ، شوهته لكيلا يصلح للركوب ، وأي فارس يرضى امتطاء حصان أصم ، أزعر ؟.

استراحت الفتاة وقد أحست أنها حافظت على إرادة أبيها الذي لقيّ حتفه في سبيلها ، فدفعت الحصان إليهم وهي تقول : « هو هذا ، خذوه لا بارك الله لكم فيه » . ولم يرفضه عبد العزيز بن مروان ، فهو وإن كان لن يستمتع بركوبه يعرف كيف يستفيد منه ، فقد اتخذه للإنتاج .

وقد أنجب الخطار (الزائد) وانجب الزائد (الفرقد) فهو أبو الخيول الفرقدية ، ولم يعرف الفرقد في شىء من خيل مصر إلا جاء سابقا .*

وكانت على اسم (الخطار) خيول أخرى لكل من ملالة بن أرحب الهمداني هو فارس الخطار وهو خيل أرحب من

همدان ، وكذلك الخطار من خيل بكر بن وائل ـ وهو فرس بشر بن عمرو ، وأيضاً من خيل فزارة وغطفان ـ فرس حذيفة بن بدر الفزاري . ولكن ليس بينهم مثل خطار لبيد بن عقبة السومي .

حصان عربي ينقذ جيشاً بأكمله

« ابتاع شاب من العرب فرساً ، فجاء إلى أمه وقد كف بصرها ، فقال يا أمي : إني قد اشتريت فرساً ، فقالت : صفه لي ، فقال : إذا استقبل فظبي ناصب ، وإذا استدبر فهقل خاضب ، وإذا استعرض فسيد قارب ، مؤلل المسمعين ، طامح الناظرين ، مزعلق الصبيين .

فقالت : أجدت إن كنت أعربت . قال : إنه مشرف التليل ، مسبط الخصيل ، وهواه الصهيل ، قالت : أكرمت فارتبط » .

لم يكن اختيار هذا الشاب لفرسه بتلك الدقة في الصفات من باب الصدفة ؛ فكيف يكون ذلك ، وهو الذي توارث حب الأصايل ، كابرٍ ، واستمع إلى الكثير من الحكايات حتى تأكدت لديه أوصاف لا غنى عنها لمن أراد ارتباط الخيل .

العلاقة الفريدة التي تجمع بين الإنسان العربي والخيل .. ضاربة في أعماق التاريخ .. تلك العلاقة التي يمكن أن نطلق عليها حالة العشق الدائم بين الأصالة والتاريخ ، ومسيرة الإنسان وانطلاقاته وتطلعاته ، وإذا علمنا أن الخيول العربية أنبل وأجمل الخيول في العالم أجمع ، كان لابد لنا أن نعرف أيضا أن وراء ذلك عناية خاصة من الفارس العربي على مدى تاريخه الإنساني . ولعلنا ندرك الفرق الرهيف بين معنى « الفارس » المشتق من « الفرس » و « الفتوة » المتناسلة من معنى « الفتى » .

فالخيول هي أحد الوسائل التي استخدمها الإنسان العربي في التنقل بالسفر والترحال ، وفي الزود عن أرضه وممتلكاته ،

فهي آلة حربه ومعقود بها بعد الله ـ سبحانه ـ النصر المبين .

وهي مقتنيات ثمينة لا يماثلها شىء مما يتفاخر به الناس ، بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الفرس هي آخر ما يقدمه المضيف لضيفه ، مهما علت منزلة هذا الضيف ، فهي عنده بمثابة النفس .

كيف لا ؟ وهي التي ورث حبها ، كابر عن كابر منذ أن دجنها أبو العرب سيدنا اسماعيل عليه السلام .

في كتاب أوراق مصرية للدكتور عبد الله خورشيد قدم لأوراقه في رشاقة وجزاله أختصرها في كلمات أبسط ما يقال عنها أنها منتقاة بعناية فائقة .. حيث كان يركز الضوء على جزئيات لها دلالتها وأهميتها ، وأول تلك الأوراق كان حول ـ الحصان الفاتح ـ حيث استعرض لنا حجم الجيش الذي عبر به عمرو بن العاص حدود مصر الشرقية قادماً من فلسطين سنة ٦٤٠ م ٢٠ هـ مما يعني أن مصر قد دخلها حينذاك ما لا يقل عن ثلاثة الآف حصان عربي ، ومع توالي الإمداد لجيش عمرو مما ارتفع بعدد أفراد هذا الجيش إلى حوالي خمسة عشر ألفا ، يمكن أن يكون عدد الخيل العربية قد زاد بهذا القدر أو قريبا منه .

وهذا يعني أن مصر لم يفتحها الفارس العربي وحده وإنما شاركه في ذلك مشاركة حقيقية حصانه العربي المدرب القوي .. والذي اعتادت أذنه قعقعة السلاح .

لقد تحول الحصان في إحدى الحكايات إلى بطل اسطوري كان له الفضل في إنقاذ جيش بأكمله ، هو جيش عقبة بن نافع ، من الهلاك عطشا تحت نار الشمس المحرقة في قلب

الصحراء الجرداء .

فعندما قفل عقبة بجيشه متجها إلى مقر قيادته بعد أن خاض عددا من المعارك أفتتح فيها مجموعة من القصور (المدن المحصنة) في ليبيا نزل في بعض الطرق ـ ربما ـ ليستريح ولكن حدث أن نفد كل الماء الذي تحمله الإبل المرافقة للجيش في القرب التي تحملها على ظهورها . وكان موقفا بالغ الخطورة ، فالاقامة في المنزل تعني انتظار الموت عطشا ، ومواصلة السير تعني السعي إلى الشىء نفسه ، ولم يكن أمام عقبة ما يستطيع عمله سوى أن يتجه إلى الله بكل إيمانه وخوفه ورجائه في صلاة طويلة عميقه . وبينما عقبة منخرط في صلاته ودعائه تحرك جواده الذي كان يقف خارج الخيمة يكابد من الظمأ ما تكابده سائر الخيل وكل الرجال . فسار خطوات قليلة توقف بعدها عند بقعة من الرمال ، و أنحنى بعنقه نحوها وراح يبحث في الرمال بيديه ليصنع حفره صغيرة لم تلبث حتى تكشفت عن صخرة ملساء لم تكد الرمال تنزاح عن جوانبها حتى أنفجر الماء صاعدآ من تحتها . وراح الحصان الظمأن يمتص الماء ، وينتفع غلته ، ويسترد روح الحياة .

أنتهى عقبة ـ الذي شاهد ما حدث ـ من صلاته ، وهو لا يكاد يصدق ما يري ، و أنفتل خارج خيمته يصيح بفرسانه أن يقبلوا ويحفروا المنطقة هنا وهناك ، وفي لحظات كان الرجال الأشداء الظامئون قد احتفروا سبعين حفرة شربوا منها ماشاؤوا ، وملؤوا قربهم ليواصلوا بعد ذلك مسيرهم ، لم ينقذ جواد عقبة جيشا كاملا من الهلاك فحسب ، ولكنه أيضا أكتشف أثمن ما يمكن أن يكتشف في الصحراء : إنه

الماء .

وتخليدا لذلك الحادث العجيب والاكتشاف الكبير أطلق على ذلك المكان منذ ذلك الحين اسم : ماء فرس .

لولا بصيرة السائس الفارس
لضاع نسل الحرون

إذا كانت كلمة الفروسية ترتبط في أذهاننا برياضة الأجداد وتاريخهم مع البطولة والقوة والشجاعة ، والبراعة والنبل ، والشرف والشهامة والأصالة تظل تلك الكلمة محتفظة ببريق خاص . فعندما نرى كلمة (فارس) ـ كما يذكر صاحب لسان العرب ـ نجد أنها تعني الحاذق بما يمارس .

كان الفارس قتيبة بن مسلم الباهلي قد زايد المهلب بن أبي صفرة على شراء (الحرون) حتى بلغا به ألف دينار ـ رغم ما فيه من صفات تدعو إلى العجب ـ فكان يسبق الخيل ثم يحرن ، ثم تلحقه الخيول ، فإذا لحقته سبقها ، وكان الفرس قد أصابه مرض في بطنه ، فلصق صقلاه ـ هما خاصرتاه ـ وكان صاحبه من بني هلال قد طفح به الكيل من حرانه ، فلما أعلن عرضه للبيع لم يهتم به المهلب بن أبي صفرة ، وقال : فرس حرون ومريض بألف دينار ؟! هذا لا يكون ..! فقيل له : إنه ابن أعوج ـ وهو فرس مشهود له ومشهور عند العرب ، وتنتسب إليه خيولهم ـ لكنه قال : لو كان أعوج نفسه على هذه الحالة ما يساوي هذا الثمن ، فاشتراه مسلم بن عمرو الحصيف الواعي الذي كان يلقب بالسائس لبصره بالخيل وصنعته لها .

أمر بالحصان فعطش عطشاً شديداً ، وأمر بالماء العذب فبرد ، حتى إذا أجهده العطش قرب إليه الماء البارد العذب ، فشرب الفرس حتى حبب وامتلأ ، ثم أمر به رجل فركبه .

ومع استمرار الركض وامتلاء صدره بالهواء وشربه للماء العذب البارد رجعت خاصرتاه ، وبعد ان أطمئن له مسلم أمر به للسباق كيف لا وهو الحرون بن الأثاثي بن الخزز بن الوثيمي بن أعرج ، فسبق عليه الناس دهرا فلا يسبقه فرس آخر ، ثم افتحله ، وكل ما جاء من إنتاجه جاء سابقاً وليس في الأرض جواد منذ زمن يزيد بن معاوية فيه من الصفات المرغوبة إلا وينسب إلى الحرون ، وكان مسلم قد رأى فيما يرى النائم أنه يخرج من إحليله طائر يطير ، فأرسل إلى محمد بن سيرين يسأل بيان ذلك ، فقال : إن صدقت رؤياك لتنتجن خيلاً جياداً لا يُتعلق بها . فنتج البطين والبطان بن البطين ، ولم ير مثلهما قط .

وكانت خيول مسلم إذا ارسلت في سباق كان السابق والمصلي - الأول والثاني - حتى العشرون كلها أفراس لمسلم الباهلي ليس لأحد فيها شيء . فلما مات مسلم ، وجاء الحجاج أخذ البطين من قتيبة بن مسلم ، فبعث به إلى عبد الملك بن مروان ، فوهبه عبد الملك لابنه الوليد ، فسبق الناس عليه ، ثم استفلحه فهو أبو الذائد ، والذائد أبو أشقر مروان .

وحدث أبو عبيدة قال : سبق الناس قتيبة بن مسلم بخراسان وخيل العرب من أهل الشام متوافرة بخراسان ، فتوالى لقتيبة ثمانية عشر فرساً ، وجاءت أمامها جَلْوىَ - فرس لعبد الرحمن بن مسلم - وهي بنت الحرون لصلبه . فقال في ذلك فضالة بن عبد الله الغنوي :

خرجت سواسية معا وأمامها جلوى تطير كما يطير الشوذق
فلمحت أنظرها فما أبصرتها مما ترفع في السراب وتغرق

كتب التراث تذكر لنا من جياد العرب الأولى : سبل وسوادة وقسامة وفياض ، الذي يزعم أنه يعود إلى وبار بن أميم بن لود بن سام بن نوح ، وأنه لما هلكت وبار ، صارت خيلهم وحشية لا ترام ، وكانت سبل ـ التي ذكرناها ـ وحشية أيضا من وحوش وبار ، وهي أم (أعوج) الذي تنتسب إليه عامة جياد العرب ومنها (الحرون) ، هذا هو الحرون الحصان العربي الأعجوبة الذي استجاب للعلاج في قصتنا هذه بشكل يدعو إلى الدهشة وهي صفة لا يتصف بها غير الحصان العربي النبيل ، كما أنه لما توفر له الفارس الواعي الذي لولا خبرته ونظرته الثاقبة لفقدنا أثره .

الخضراء وفارسها ذياب
عندما يتحول الصهيل إلى عويل !

الشاعر العربي جرير يحق له أن يفخر بقومه في هذا البيت الشعري الذي لو لم يقل سواه لكفاه :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

ـ خضراء ـ قصة الحب المتبادل بين الفارس والفرس ، والخضراء هي الأثيرة والعزيزة لدى ذياب بن غانم ، كيف لا ، وهي التي كانت سببا في انقاذه عندما نجح اعداؤه للإيقاع به من فوق سرجها وأخذوه أسيرا .. يومها عادت تجري إلى منزله ، تضرب الأرض وتطلق صهيلا كأنه العويل والبكاء ، لو نطقت الخضراء لقالت :

أنقذوا هذا الحبيب ، وشاهدتها (وطفا) بنت ذياب التي كانت ترجمان هذا الحديث فقالت فور سماعها هذا الصهيل :

ـ ويلي إن أبي في خطر .

وأسرع رفاقه وعشيرته تقودهم الخضراء لإنقاذه .. وتم الإنقاذ والتنكيل بالأعداء ، تلك هي الخضراء التي فجعه رفاقه بسؤالهم إياه أن ينعم عليهم ويمنحهم الخضراء ويدفعون له عوضا عنها ما يريد من خيول وأموال .

كيف هذا ؟ كيف هان عليهم أن يطلبوا منه هذا الطلب رغم معرفتهم بأنه قد رباها منذ الصغر ، وأصبحت جزء من حياته ، أنه فارسها العنيد الذي لا يشغل قلبه بحب امرأة ، وهو يشعر بأن الخضراء هي حبيبته ، فهو لا يشعر بالقوة والسعادة إلا وهو فوق ظهرها .. حصنا منيعا إذا أشتدت معمعة القتال وقعقعة السلاح ، وهي أنيسه مهما طال السفر .

استفظع منهم طلبهم هذا وذياب بن غانم كان ضمن جماعة من بني هلال ضمت إلى جانب ذياب أبو زيد الهلالي ، والقاضي بدير بن فايد ، وعلى رأسهم الأمير حسن بن سرحان ، وتلك الجماعة كانت في طريقها إلى تونس الخضراء مرورا بمصر ، وضربت القبيلة خيامها في البادية القريبة من قصر الحاكم ـ الماضي بن المقرب ـ ولا يتردد كبارهم في تلبية دعوة الحاكم فيما يقيمه لهم من ولائم ، وقضاء بعض الوقت في الاسمار .

وذات ليلة تقدم إلى الماضي بن المقرب أحد أعوانه يقول له : لقد بلغني ان بني هلال لديهم امرأة ليس لها مثيل بين النساء في العفة والجمال وفصاحة اللسان تدعى ـ الجازية ـ فإن خطبتها منهم فمعها ترى السعادة فما هي إلا شمس مشرقة ، لكن الماضي ابن المقرب قال : أنه من غير اللائق أن أطلب منهم حق ضيافتي لهم ، يد ابنتهم ، فأعادوا عليه الحديث ، زيادة في الوصف وتحفيزا لهمته لخطبتها .. قائلين له : نحن نعلم أنهم لن يعطوها إلا لواحد منهم ولو دونه أعظم الملوك وعمدة العمد والحكام والرأي عندنا أن تطلب منهم اولاً فرس ذياب المسماة (الخضراء) التي لا يوجد مثلها بين جميع الأفراس .. وهو لن يعطيها أحد لأن نفسه معلقة بها فإذا طلبت بعد ذلك الجازية خجلوا أن يردوا لك تلك الأمنية .

كتب ماضي بن المقرب إلى الأمير حسن يطلب منه الخضراء ، ولما وصل الخطاب إلى الأمير حسن اعطاه لـــــ (أبو زيد) ليقرأه وهو في حيرة من أمره ، فكيف ينقل هذا الخبر إلى ذياب بن غانم وهو يعلم مدى تعلقه بها ، ولن يعطيها

لأحد ولو هلك بني هلال ، فأقترح أبو زيد الهلالي أن يذهب بصحبة الأمير حسن ومعهم القاضي بدير إلى منزل ذياب ويطلبون منه الخضراء ، فنظر إليهم ووجه حديثه للأمير حسن : كل شيء عندي ملك يديك إلا الخضراء ، ما فيها تفريط ، لأن روحي وروحها سيان ، ونظر إليه خاله القاضي بدير ، وقال معاتبا : ما هذا الكلام يا ذياب ؟ كيف نقصدك فتردنا خائبين من أجل فرس ؟!! .

ـ يا خالي ، إن الخضراء أعز عندي من روحي ولن أعطيها لكائن ما كان ولو فيها موتي .

فأنصرف الأمير حسن ومن معه يائسين ، وبينما هم يهمون بالركوب عائدين لمضاربهم رأهم غانم أبو ذياب ، فعزم عليهم أن ينزلوا عنده ، وذبح لهم وأكرمهم ، ثم أنفرد بأبنه وعاتبه أشد العتاب مذكره بأنه لا يليق بالعربي أن يمنع ماله عن أهله وأصدقائه ، وكاد ذياب أن يتمزق وهو يسرج الفرس ويقودها إلى الأمير حسن منشداً :

يقول الفتى الزغبي ذياب بن غانم

أنا صاحب الهمات في يوم الطراد

يا بو علي أنا ما بخيل ولا ردي

ولا أنت للخضراء لديك مراد

لكن ستعطيها إلى ابن مقرب أنا بالفرس أولى من الأبعاد

ما طاق قلبي يا أمير فراقها وربيتها أحسن من الأولاد

أنا تحت أمرك يا أمير أبو علي فأفعل بنا ما تفعل الأجواد

شكره الأمير حسن واستدعى رسولا ليسير بالخضراء إلى الماضي بن مقرب ، فتقدم إليها ذياب معانقا وهو يشعر لأول مرة أن قلبه يكاد ينفطر من شدة الحزن .

وعلى الرغم من دهشة الماضي عند وصول الخضراء إليه فقد شعر بالندم لإحراج ضيوفه ، وكذلك خيبة الأمل للوصول إلى الجازية بعد فشل خطته ، وفيما هو مع أفكاره وصلته رسالة من مكة يحملها رسول اميرها ـ الشريف بن هاشم ـ يقول في رسالته : أن زوجته هجرته ورحلت مع أهلها بني هلال إلى تونس ، وأنه علم أنهم نزلوا عنده ، ويرجوه أن يتوسط في الصلح بينه وبين زوجته لتعود إليه وإلى ولدها محمد .

إذن الجازية متزوجة وأم عليّ خلاف ما زعم الزاعمون وحمد الله أنه لم يتورط في طلب يدها ، كما أن الخضراء لا تأكل ولا تشرب وتصهل صهيلا حزيناً فأمر باسراجها واعدادها مع هدايا كثيرة ، وارسل الخضراء الفرس الأصيل التي ليس لها إلا ذياب مع طلب صلح الجازية أم محمد ، فلما قرأ الأمير حسن الرسالة وكان ذياب حاضرا فقال له : هذه فرسك قد عادت إليك .

ورغم أن ذياب كان يصارع نفسه بين حب الفرس وبين طبع الفارس الشهم : ـ أني ما وهبت شيء ثم عدت استرجعه ، فأبقها وأجعلها من جملة خيولك .

قال الأمير حسن : هذا لا يكون ، كثر الله خيرك ، فأنت صاحب المعروف وأحق بها من غيرك وأنت لم تسترجعها وانما عادت إليك حلالا عليك ، وكان ذياب أثناء حديثه هذا يتجنب النظر إلى الخضراء حتى لا يغلبه الشوق إليها فلما سمع من الأمير ما طيب خاطره ، قام إليها ، وأمسك بزمامها وتحسس كتفها ، رنت إليه الخضراء وهي تحمحم وكأنه حديث عتاب وشوق وحنين ، فأسرع بها ليخفي عن القوم دموعا تحجرت في المآقي ،

تحمل على الخيل وهي حامل
وأخرى تجلب الخطاب لليتيمة

للفرس (الحموم) قصة من عجائب قصص الخيل ، إن كانت نفس الحادثة قد جرت مع فرس أخرى سوف نأتي على ذكرها . أما الحموم فهي من خيل بني نمير ، وصاحبها هو الحكم بن عرعرة النميري ، قال ابن الكلبي : خبرني بعض علماء أهل اليمامة أن هشام بن عبد الملك كتب إلى إبراهيم بن عربي ليبحث عند أعراب باهلة عن خيل من ولد الحرون . فلما بعث إلى شيوخهم يسألهم قيل له : ما نعلم عن ذلك غير فرس عند الحكم بن عرعرة يقال لها الحموم ، ارسلوا وراءه لاختبار ما لديه ، وهل هي فعلا تستحق هذا البحث المضني ؟ وهل لها من القدرة للصمود في سباق يجمع خيولاً قوية ولها السبق ؟! وكان ضمن الخيول أشقر أقرح من ولد لاحق من خيل بني سعد ، فنظر إليه الحكم بن عرعرة ، وكان أبصر الناس بالخيل ، فظن أنه لو خسر السباق فإن السبب يعود لهذا الفرس .

انطلقت الخيل في مضمار السباق ، وتصدر الأشقر السعدي على الحموم ، وقد انقطعا عن الخيل بأطوال بعيدة فرجز السعدي شاهدا لفرسه بالتفوق فأنشأ يقول :

نحن صبحنا عامراً في دارها   أروع يطوي الخيل من أقطارها

يغادر الخيل على انبهارها   مقهورة تتعثر في غبارها

قال : فو الله لكأنها فهمت رجزه ، فصرت أذنيها ، ثم اعتمدت

في اللجام ، فانطلقت وكأنها سهم حدد موقعه تماما من مركز الدائرة ، وجاءت سابقة وقد قيل عنها : « يتقدمها عشرات الجياد في السباق ثم تغضب وتدركها عروق كرام فتسبق » .

قال : فكلمه إبراهيم بن عربي فقال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أصيب له فرسا من نسل الحرون ، قد جلت عن نفسها بالسبق ، فخذ مني ثمنها . فقال الحكم : إن لها صحبة وحقا ، وهي عندي نفيسة ما تطيب نفسي عنها، ولكن أهب لأمير المؤمنين ابنا لها سبق الناس عاما أول ، وإنه لرابض . قال : فضحك القوم . فقال : ما يضحككم ؟ قد أرسلت أمه عاما أول في حلبة ربيعة ، وإنها لعقوق به ، قد ربض في بطنها ، فسبقت . فبعث به إلى هشام ، فسبق الناس عليه ما أغتر .

والقصة الأخرى والتي كادت تتطابق في معظم تفاصيلها هي قصة (حزمة) من خيل بني نمير أيضاً ، وهي فرس لحكيم بن جناب النميري وقد ركضت وسابقت وابنها في بطنها له عشرة أشهر .

أما (القرحاء) فقد كانت السبب في سعادة صاحبنها البنت اليتيمة التي لم يترك لها والدها إلا تلك القرحاء التي كان يزدريها كل من شاهدها .

يقول عن ذلك المجاهد الرسولي في « الأقوال الكافية » : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إلى عماله بالعراق وخراسان ، وكذلك سائر الأمصار بأخذ الخيل ، ومباهاة العدو بها .

قال : فكلمه إبراهيم بن عربي فقال : إن أمير المؤمنين

كتب إلى أن أصيب له فرسا من نسل الحرون ، قد جلت عن نفسها بالسبق ، فخذ مني ثمنها . فقال الحكم : إن لها صحبة وحقا ، وهي عندي نفيسة ما تطيب نفسي عنها، ولكن أهب لأمير المؤمنين ابنا لها سبق الناس عاما أول ، وإنه لرابض . قال : فضحك القوم . فقال : ما يضحككم ؟ قد أرسلت أمه عاما أول في حلبة ربيعة ، وإنها لعقوق به ، قد ربض في بطنها ، فسبقت . فبعث به إلى هشام ، فسبق الناس عليه ما أغتر .

والقصة الأخرى والتي كادت تتطابق في معظم تفاصيلها هي قصة (حزمة) من خيل بني نمير أيضاً ، وهي فرس لحكيم بن جناب النميري وقد ركضت وسابقت وابنها في بطنها له عشرة أشهر .

أما (القرحاء) فقد كانت السبب في سعادة صاحبنها البنت اليتيمة التي لم يترك لها والدها إلا تلك القرحاء التي كان يزدريها كل من شاهدها .

يقول عن ذلك المجاهد الرسولي في « الأقوال الكافية » : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إلى عماله بالعراق وخراسان ، وكذلك سائر الأمصار بأخذ الخيل ، ومباهاة العدو بها .

فكتب إلى أخيه محمد بن يوسف باليمن ، وكان عنده من أجود الأفراس مئة ، فكتب بدوره إلى أصحاب الخيول من أهل اليمن ليجمعوا له من الخيول السوابق في يوم حدده لهم وفي الحلبة التي سوف تشهد السباق الذي يتحدد من خلالها أفضل الخيول التي سوف تختم وترسل إلى الحجاج ، وجائزة السابق منها مئة ناقة ، والتوالي يكون لها جوائز

حسب تقدير المحكمين .
فاجتمعت الخيل بصنعاء ، وأقبلت فتاة صغيرة السن تتخبط في ثيابها من فرط الحياء ، تقود مهرة دهماء قرحاء ضعيفة البنية ، فقالت : أيها الأمير ، إن رأيت أن تختم مهرتي هذه فاقتحمت عين محمد المهرة وازدراها ، وكان فظا ، فانتهرها وقال : ليس مثل هذه تختم ، فاستأنفت وقالت : أيها الأمير إني يتيمة ووحيدة ، ولم يترك لي والدي غير هذه المهرة ، فإن رأى الأمير أن يختمها فإن يسر الله لي منها رزقا فذلك من فضله ، وإن تهلك فغير مأسوف عليها ، فأمر محمد بختمها ، وتجهزت حلبة السباق وأحضرت الفتاة مهرتها ، وانطلقت الجياد والناس ينتظرون الوصول إلى خط النهاية حتى أقبلت الخيل والقرحاء أمامها تنطلق كالحمامة حتى وصلت إلى الغاية وما شق لها غبار حتى وصول باقي الجياد بعد مدة ، فوثبت الفتاة إليها وقد وقع برقعها من شدة الفرح ، فكشف عن وجه كالقمر ، وراحت تتغنى بالقرحاء التي يزدريها الجميع ، فأمر لها محمد بن يوسف بمئة ناقة ، فأمست وقد كثر خطابها .

* كتاب الهلال ـ أوراق مصرية ـ د. عبد الله خورشيد ـ دار الهلال .

عجائب وغرائب

الزبير بن العوام صحابي جليل وفارس وبطل من أبطال المسلمين وفي معركة بدر الكبرى ، وبعد المبارزة المعروفة في كتب السيرة ، هجم كل فريق على الآخر ، وأحتدم القتال وأشتد الموقف . والتقى الزبير بعمه نوفل بن خويلد فأطاح برأسه مستهيناً بقرباه ، وطالبا ثواب الله بقتله .

وكان الزبير يومذاك واحداً من فارسين وليس هناك إلا فرسين إحداهما للزبير ، وتسمى يعسوب ، والأخرى للمقداد بن عمرو ، وعلى هذا يكون الفرس يعسوب أول فرس تشارك في معركة بدر الكبرى . *

ويقال : أن الحشا فرس لعمرو بن عمرو ، وكانت تتميز إلى جانب سرعتها وأنها لا تجارى في السرعة إلا أن لها ما للفحل وما للأنثى ـ أي أنها كانت خنثى ـ وكانت ضبوباً (أي تبول وهي تعدو) ، وتلك واحدة من غرائب وعجائب الخيل .

أما الزائد : للعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وكان لا يدخل عليه سائسه إلا بإذنه ، وذلك بأن يرفع له المخلاة فيها شعير ، فإن رفع رأسه دخل إليه ، وإن لم يفعل به ذلك شد عليه فمنعه من الدخول إليه ، وكان يأتي سابقاً بقدر رمح ، واورد فيه صاحب اللسان (معع) ٨/٣٤٠ قول الراجز :

لا ترتجي حين تلاقي الزائدا   أسبعة لاقيت معاً أم واحداً

وهناك الديباج : حصان لشرف الدين بن قيصر ، أغار عليه على (أبْيَن) إلى البيضاء من حدود حَيْس وهو لابس عدته ، وعلى الفرس عدته ، والمسافة يوم وليلة للراجل ، فلما وقف به حيث انتهى غرضه أراد الفرس أن يربض فضربه بالدبوس في رقبته ، فوثب ، فأظهر له الفرس العداوة بعد ذلك ، فلم يمكنه من ركوبه ، وكان يحتال عليه بكل حيلة فلم ينفعه في شيء ، حتى أنه يتغيب عنه ، ويلجم ويسرج وتربط عيناه ، ويركبه دون ان يصدر صوتاً ، فإذا رفع القناع عن وجهه وفتح عينيه ورآه ربض في الأرض ، وراغ حتى ينزل عنه ، فاشتراه منه الأمير عز الدين بن قتادة بن محمد بن ابراهيم بألف ومئتي دينار فلم ينكر من أخلاقه وجودته وانقياده له شيئاً ، وكان إذا سمع صوت ابن قيصر الذي ضربه في موضع يجتمع فيه الفرسان كالأعياد وغيرها ، لا يزال يرمح برجليه ، ويقلع ويتنكر حتى يبعد عنه ثم يسكن ، وهذه من طباع الخيل العربية ، لشرف نفوسها وعزتها دون غيرها من سائر أصناف الخيل .

وأما (ذو الموته) والذي جاء ذكره في أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها لأبي محمد الأعرابي ص ٢٥٤ ، فكان لبني سلول من ولد الحرون ، قال أبو الندى : كان يأخذه شبه الجنون في بعض الأوقات ، وفي سبب تسميته بهذا الاسم أنه إذا كان في سباق وجاء سابقاً أخذته رقدة ، فيرمي بنفسه ويبقى طويلاً ثم يقوم فينتفض ويحمحم ، وورد اسمه أيضا بلا نسب في الكنز المدفون ص ٨٩ .

والمُعَلَى حصان عوده صاحبه على احتساء اللبن مما جعل ذلك نقطة ضعف تجلب المشاكل ، والقصة كما وردت في أنساب الخيل ص ١٠٨ - ١٠٩ بالقول : أن الأسعر بن أبي حمران الجعفي كان يطلب بني مازن من الأزد بدم ، فكان يصحبهم فجأة فيقتل منهم ثم يهرب ولا يدرك حتى سعرهم شراً ، وكانت خالته فيهم ناكحاً ، فقالت إني سأدلكم على مقتله ، إذا رأيتموه فصبوا لفرسه اللبن فإنه قد عوده سقيه إياه ، فلن يضبطه حتى يكرع فيه .. ففعلوا فلم يضبطه حتى كرع فيه ، فأنشأ يقول بعد نجاته :

أريد دماء بني مازن وراق المعلى بياض اللبن
خليطان مختلف شأننا أريد العُلا ويريد السمن
إذا ما رأى وضحاً في الإناء سمعت له زمجراً كالمغن

ولعل العادة التي اعتاد عليها (المعلى) كانت شؤما على صاحبه ولكن في المثل يقال : (أشأم من داحس) ، وذلك لأنه وقعت حرب بين بني عبس وبين ذبيان أربعين سنة ، و (داحس) فرس قيس بن زهير العبسي ، وهو ابن ذي العقال ، وأمه جلوى ، وكانت لقراوش بن عوف ، وصار داحس لقيس بن زهير من غارة أغارها على بني يربوع ، وسمى داحساً ، لأن ذا العقال اعترض جلوى حين أنتج بنو يربوع ، فنزا عليها ، وكان ذو العقال لحوط أبي جابر بن رباح ، فقال : والله لا أرضى حتى آخذ ماء فرسي ، ثم تخوفوا من وقوع الشر بينهم ، فأمكنوه من الفرس ، فبسط حوط يده وبلها بالماء ثم غمسها في الرمل وأدخلها

في رحمها ودحسها ، حتى ظن أنه بالغ ثم انصرف ، وقد استمسكت الرحم بما فيها ، فنتجت لقراوش فرساً فسمى داحساً لذلك الدحس .

كان العرب مضرب المثل في الاهتمام بالخيل وبأنسابها وإثارها حتى عن الأبناء ، والمغالاة في بعض الأمور ربما عادت على صاحبها بنتائج غير محمودة ، وقد يتعصب لرأي بدون أساس ولا يتراجع مهما بدت له حقيقة هذا الخطأ ، وهنا قصة للمغالاة في حب الخيل وايثارها عن الولد .. يقال : إن (مرهوب) فرس للجميح بن الطماح الأسدي أعطاه إياه خراشه بن علبة المري ، وكان الجميح غزا فعُقر به ، فجاء إلى صديق له من بني مُرة بن عوف بن سعد بن ذبيان يقال له خراشة بن علبه ، ولخراشة ابن يقال له نزال أسير في بني سليم ، وكان لخراشة فرس رائع اسمه (مرهوب) ، وكان بني سليم الذين هم يأسرون ابنه يتغالون في فدائه ، ويسومون خراشه أن يفديه بفرسه طمعا منهم في الفرس وكان يأبى أن يجيبهم لطلبهم فحمل عليه الجميح وترك ابنه أسيراً .

ومثال آخر أكثر عجبا لصاحب الفرس الكحيلة عندما جاء الغزاه وأستطاعوا أخذ الكحيلة والسير بها مسافة طويلة ، وعندما امتطى ولده الحصان المعروف ـ بليق ـ ويقال أنه كان كديشا لا أصل له ولكنه كان سريعا يسبق الخيل ، وعندما رأى صاحب الكحيلة أن بليقاً أوشك

على اللحاق بها والالتحام مع الغازي واعادتها نادى عليه أن يأخذها إلى طريق أكثر استواء ويتناسب مع ركضها كي لا يلحق بها الحصان بليق ، وقيل في ذلك مثل : (تؤخذ الكحيلة ولا يسبق بُليق) وتلك غيرة منه على استمرار السبق للكحيلة .

الفرس عجلى

على الرغم من أن (عجلى) ، إحدى خيل قبيلة عك ، كانت حبلى ، وكان المفروض أن يقعدها ذلك عن المشاركة في معارك الفتح ، أو على الأقل يثقل حركتها ويقلل من كفاءتها ، فإنها شاركت في تلك المعارك ، بل كانت أخف من غيرها حركة وأكثر سرعة ، مما جعل الشاعر ، ولعله صاحبها ينظم بها شعرا يتغنى به في قوله :

سبق الأقوام عجلى .. سبقتهم وهي حبلى

ذاع ذلك الشعر بين الناس ، وذاعت معه شهرة عجلى ، إلى أن التقى أحدهم بالفارس صاحب عجلى ، فقال له مداعبا ، وربما مستهزئا : ما فعلت عجلى ؟ يشير بذلك إلى الشعر المذكور .

وجاءت إجابة الفارس موجعة إذ قال : أما أن لها في أمك سهمين !! ، ذلك بأن أم ذلك الرجل ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ، وهي قبطية ، كانت من نصيب أبيه عندما سُبيت في إحدى المعارك التي شاركت فيها عجلى عند افتتاح المدن المصرية بالدلتا .

وعن فراسة العرب وشدة تعلقهم بصفات خيلهم ما يروى عن الشماء ، وهي فرس لمعاوية بن عمرو بن الشريد ، (

أخو الخنساء الشاعرة) ، وكانت فرسا غراء ، ولما ركبها أخوه صخر ، ليدرك ثأر أخيه في بني مرة بن ذبيان ، قال : إني أخاف أن يعرف القوم غرة الشماء فيتأهبوا ، قال : فجم غرتها ، فلما أشرف على أداني الحي رأوها ، قالت فتاة لأبيها : هذه والله الشماء يا أبي ؛ فنظر فقال : الشماء غراء ، وهذه بهيم ، فلم يشعروا إلا والخيل معهم .

والغريب أمر التشاؤم بينهم حتى يقال : إن حميزة : فرس شيطان بن مدلج الجشمي ، ويكفي اسم صاحبها حتى تكون أشأم فرس عرفها العرب ، عموما يقال في حديثها ، إنه خرج بنوا جشم يطلبون المرعى ، فأخذها صاحبها للرعي طول نهاره ، ثم سار ، وخرجت بنوا أسد وبنوا ذبيان غازين ، فرأوا آثار حميزة ، فقالوا : إن هذا لقريب منكم ، فاتبعوا أثرها ، حتى هجموا على الحي ، فغنموهم ، فقيل : « أشأم من حميزة » .

وأما سبيع بن الخطيم التيمي . فارس نحلة فقد قال فيها :

إني رأيت أبا شيماء متله إذا أكلمه في رأس أسلوب

يقول : نحلة أو دعني فقلت له : عول على بأبكار هراجيب

ماذا أقول إذا ملكت وابتكروا بسمحج كقناة الرمح سرحوب

لحت على يمين لا ابدلها من ذات قرطين بين النحر واللوب

قال أبو محمد الأعرابي : سألت أبا الندى عن معنى الأبيات فقال : كان سبيع قد خطب إلى عمه ابنته فقال : أعطني مهرها (نحلة) . فقال لا ولكن خذ ابلا ، فرده عمه ولم يقبل خطوبته .

بونابرت بين مارينجو والوزير

لقد تعلق الأمبراطور نابليون بونابرت بالجواد العربي وقد وصف ذلك ـ نيرولوجلي ـ في كتاب الحصان قائلا : *

« إن الجواد العربي المدهش بكل شيء ، ساهم في أسرع وأشجع الفتوحات العربية ففي سنة واحدة (٧١١م) دخل إلى أسبانيا واجتاز نهر الهندوس على بعد ستة آلاف كيلومتر شرقا بعد ان اجتاح امبراطورية أكبر بأربع مرات من الأمبراطورية الرومانية .

كان الامبراطور نابليون بونابرت من أكثر المعجبين بالحصان العربي وتعلقا به ، وكان لا يمتطي إلا الخيول العربية في معاركه ، لما كانت تتمتع به من رقة وتحمل لا يضاهى ، مع هدوء مدهش حتى تحت نيران العدو وانفجارات القنابل ، لقد نفق تحته تسعة عشر حصانا وأما المفضل لديه فكان الأبيض ـ مارينجو ـ الذي كان يريد وهو على صهوته أن يتسلق برج جرس ـ سان مارك ـ في البندقية ، وقد أحبه الفرنسيون حتى الهيام به ، وعندما نفق عالجوا جلده وحشوه ، وهو الآن يقف تمثالا للأصالة في أحد متاحف باريس ، أما الجواد الأبيض الرمادي الآخر الذي انتقل به خلال غزو روسيا فهو الحصان (وزير) .

* موسوعة الحصان والفروسية ـ روحي جميل .

* ـ عظماء مجهولون ـ محمود شاكر ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٨٤ م ص ٩٧ .

جاءت سيرة الفرس (الحشاء) في ثلاثة كتب هامة هي :

* ابن الكلبي ص ٤٠

* الكنز المدفون ص ٨٩

* اسماء خيل العرب وأنسابها للأسود الغندجاني ص ٨٣

المصادر

ـ اسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها لأبي محمد الاعرابي الملقب بالاسود الغندجاني .

ـ أنساب الخيل ـ لابن الكلبي ـ الدار القومية بالقاهرة ١٣٨٤

ـ حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الاندلسي ـ القرن الثامن الهجري ـ تحقيق محمد عبد الغني حسن ـ دار المعارف بمصر ١٣٦٩/١٩٤٩.

ـ كتاب جواهر الأدب للهاشمي ـ المقدسي المتوفى عام ٨٧٥م

ـ عظماء مجهولون ـ محمود شاكر ـ المكتب الاسلامي ١٩٨٤م

ـ كتاب الهلال ـ أوراق مصرية د. عبد الله خورشيد ـ دار الهلال

ـ الكنز المدفون

ـ لسان العرب

ـ موسوعة الحصان والفروسية ـ روحي جميل

* ـ كتاب جواهر الأدب للهاشمي المقدسي المتوفى عام ٨٧٥ م من مناظرة بين الجمل والحصان .



قال الحصان :

أنا أحمل صاحبي على كاهلي ، فأجتهد به في السير ، وأنطلق به كالطير ، أهجم هجوم الليل واقتحم اقتحام السيل فإن كان طالباً أدرك بي طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أسباب الردى عنه محتجبة ، فلا يدرك مني إلا الغبار ، ولا يسمع عني إلا الأخبار ، وإن كان الجمل هو الصابر المجرب ، فأنا السابق المقرب ، وإن كان هو المقتصد اللاحق ، فأنا المقرب السابق .